عام الهستيريا

تاج الشرف والبطولة هذا العام من حق المجاهدين المسلمين فى أفغانستان الذين يختمون عامهم الثامن من القتال المرير مع الاتحاد السوفيتى، أعتى وأكبر دولة مسلحة حتى الأسنان، تحاربهم بالطائرات والدبابات، والمدافع والقنابل، والغازات، والأسلحة الكيميائية، وهم قِلَّة معتصمون بالجبال، لائذون بالغابات.. والعالم بأجمعه من شرقه إلى غربه يحييهم ويشد أزرهم، ويهتف لهم ويبارك صمودهم، ماعدا حزب التجمع عندنا وجريدته الأهالى التى تسميهم المتمردين والخارجين على القانون، وهى نفس الأقلام التى كانت تهتف لمناضلى فيتنام وتضع على رءوسهم أكاليل البطولة، لأنهم كانوا يقاتلون أمريكا، وكأنما الشرف يتحول إلى جريمة إذا كان المحتل سوفيتيًّا، ودم الناس يصبح مباحًا إذا أراقته دبابات شيوعية، بصرف النظر عن القضية.. فدائمًا لا قضية.. بل تبعية.

ولكن جورباتشوف الذكى قد خانهم هذه المرة واعترف بأن التورط فى غزو أفغانستان كان أكبر أخطاء الاتحاد السوفيتى، وهكذا غسل يديه من ذنوبهم.

ولكنها أقلام ملكية أكثر من الملك، غيورة على الباطل أكثر من أهل الباطل.

ولا أدرى ماذا سيكون ردهم يوم يسألهم الله.. مع أى صف وقفوا.. هؤلاء الرفاق الذين كانت بضاعتهم دائمًا أنهم مع الضعفاء والمطحونين ضد الطغاة والجبارين.

ومَنْ كان المطحونون طوال الأعوام الثمانية؟ ومَن الذين كانت تطحنهم آلة الحرب السوفيتية الجهنمية وهم أصحاب الأرض وأصحاب الحق وأصحاب الوطن.. وأطفالهم ونساؤهم هم اللاجئون.. أربعة ملايين لاجئ أفغانى مسلم مكدسون فى قرى باكستان.

ولا أدرى بماذا سيكون ردهم..

أغلب الظن أنهم مطمئنون إلى نظرتهم بأن الإنسان سوف يذهب سُدى، وأنه لا بعث ولا حساب ولا مساءلة.. ولا تعقيب على مقالات الأهالى.

بل لم يبق الكثير يا رفاق.. لم يبق إلا ما تَبَقَّى من عمر كُلٍّ منا.. ثم ترفع الأستار وتُهتك الحُجُب، ربما الغد وربما بعد أيام، وربما بعد شهور، ثم الموعد الله.

* * *

وعلى الشاطئ الآخر على أقصى اليمين لم تسلم التنظيمات

الإسلامية السرية من الانحدار إلى هستيريا العنف والرصاص والإرهاب، وإلى درك إجرامى هو فى جوهره ضد الدين وضد الإسلام..

والنتيجة المؤسفة أن التيارات الإسلامية التى تعمل على الساحة العربية أصبحت تثير الرعب عند الكثيرين، حكامًا ومحكومين.. والنموذج الإيرانى الذى رفع راية الإسلام أعطى قدوة سيئة لكل اتجاه إسلامى.. وعصابة الآيات التى ثارت على حكم الشاه وطردته، وثارت على حكومته بدعوى أنها حكومة جاهلية، رأيناها فى النهاية تستبدل هذه الجاهلية بحكومة بربرية، وتستبدل طاغوت الشاه بحمامات دم تقيم فيها المجازر لكل الخصوم، من كل المذاهب، وتستبدل جهاز مخابرات السافاك بعصابات إرهابية دولية لخطف الرهائن، وزرع الألغام، وتفجير الطائرات.. ثم فى النهاية رأيناها ترسل بعثات للتخريب فى موسم الحج، وتتطاول على الكعبة برايات الخومينى وصور الخومينى وهتافات.. الله أكبر خومينى رهبر..

ولا يمكن أن يكون هذا النموذج إسلاميًا.. بل هو تآمر سياسى وتشويش تاريخى.

والقوى الكبرى حريصة على أن يستمر هذا التشويش التاريخى أطول وقت ممكن وهى تمده بالسلاح سرًّا وإن كانت تلعنه جهرًا.. وهى تشجبه فى المؤتمرات ولكنها تغازله من تحت

المائدة.. لأنها مستفيدة بهذا التشويش، لأنه يضرب الإسلام فى القلب، وهم يخشون الإسلام، لأنه أكبر قوة تعبوية فى المنطقة.. ولهذا يتطامنون ويستريحون لهذه الحرب الدائرة فى الخليج.. والبوارج الأمريكية والإنجليزية والفرنسية والسوفيتية التى تسبح فى مياه الخليج لا تحاول أن تمنع هذه الحرب، بل هى فقط تحرسها حتى لا تتجاوز النطاق المحلى المطلوب لها، وحتى لا تتسع فتحرق أيديهم، وإنما تظل فى النطاق الذى يحرق أيدينا نحن وحدنا.

أما التيارات الإسلامية الأخرى مثل التكفير والهجرة، وجماعات الجهاد، فلم تكن أحسن حظًا.. وتحت ستار اتهام المجتمع المصرى بالجاهلية انطلقت تطلق الرصاص هنا وهناك، وتصيب أبرياء لا ذنب لهم، فكانوا كمن حاول أن يتجنب الوقوع فى جنحة فوقع فى جناية.

وضاع بين الأرجل التيار الإسلامى العريض للأغلبية من البسطاء الطيبين، الذين يفهمون الإسلام بأنه مكارم أخلاق، وقيم، ومحبة، ورحمة، وتسامح، ومودة، ودعوة إلى الله بالموعظة الحسنة، وتنافس فى عمل الصالحات، ولا يفهمون هذا التراشق بالرصاص والقنابل.

وجاء الخطأ من اجتهاد سياسى خاطئ بأن المجتمع الذى نعيش فيه مجتمع جاهلى وكافر، فيلزم أن نخرج عليه بالسيف..

ومن هذه الخدعة ومن هذه التلبيس الشيطانى خرج التنظيم السرى للإخوان، ومن بعده خرج تنظيم التكفير والهجرة ثم الجهاد.. ومنه أيضًا جاءت هذه العصابة من الآيات فى إيران.. وقد تسلحت عصابة الآيات بسلاح آخر أكثر مكرًا هو دعوى الإمام المعصوم الذى يحكم بسلطة إلهية لا تناقش.. فكانت الطامة الكبرى التى انتهت بنا إلى ما نحن فيه.

والحقيقة أن كل هذه التخريجات والاجتهادات هى الكافرة وهى الجاهلية وليس مجتمعنا..

واقرأ عن عصر صدر الإسلام أيام العباسيين والأمويين فستجده لا يقل انحلالا عن عصرنا.. واستمع إلى ما يقول أبو نواس فى الخمر وفى الغزل بالمذكر وفى القيان والغلمان والجوارى والغيد الحسان:

يا أحمد المرتجى فى كل نائبة قم صاحبى نعص جبار السماوات

واقرأ عجائب الانحلال فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى.. واقرأ سيرة خلفاء بنى أمية وبنى العباس، وما فعل السفاح الأشهر الحجاج بن يوسف الثقفى فى خدمة سادته، ثم فتن القرامطة والشيعة والباطنية، وما أشاعوه من بلبلة وكفر.. وستعلم على وجه اليقين أن مجتمعنا الذى نعيشه الآن أكثر إيمانًا وأكثر إسلامًا، وأن قاهرة الأربعين ألف مئذنة،

وشاشة التلفزيون التى يجلجل فيه صوت الشيخ الشعراوى، ومنارة الأزهر الشريف، ثم الكثرة من البسطاء الطيبين الذين يسعون إلى المساجد فى غلس الفجر ويحملون أمانة لا إله إلا الله فى زمن ردىء وعصر مرهق.. هم مسلمون أوفياء وليسوا كفرة ولا جاهليين.

سوف تسأل: وكيف كان المسلمون فى أيام الدولة الأموية والعباسية سادة الدنيا برغم الانحلال والفتن؟! فأقول لك: بسبب العلم.. فقد كان فيهم ابن سينا، وابن رشد، وابن الهيثم، وجابر بن حيان.. وكانت علوم الفلك والطبيعة والرياضيات تشع على الدنيا من بغداد.

ثم دارت الدائرة وانتزعت أوربا وبريطانيا وفرنسا راية العلوم من أيدينا، وغلبتنا بالمدفع والدبابة والغواصة والبارجة.. وأصبح الغرب اليوم سادة الدنيا، برغم الانحلال والإيدز والمخدرات.

نحن مسلمون يا إخوان ولسنا فى حاجة إلى انقلاب إسلامى، نحن فى حاجة إلى دعوة توقظ الضمائر وتحرك النفوس، لا إلى نظام بوليسى يميت القلوب،

نحن جهلة ولسنا جاهليين.

متخلفون لا كفرة..

نحن فى حاجة إلى انقلاب علمى نلحق فيه بما فاتنا من علوم الذرة والفضاء والتكنولوچيا والكومبيوتر.

نحن فى حاجة إلى ثورة فى التعليم، وانقلاب فى الجامعات.

وإذا كان فى إسلامنا عيب فبسبب هذا التخلف العلمى، وبسبب هذا التقصير فى الأخذ بالأسباب..

وديننا لا يعرف هذه القسمة بين علم وإيمان، وهو لا يكتمل إلا بالاثنين.. فالإسلام الحقيقى علم وعمل ومكارم أخلاق إلى جانب الإيمان بالله وعبادته وتقواه.. وهذا الجانب العلمى من الدين هو ما ينقصنا.. فالمسلمون هم الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض.. ونحن لا نتفكر.. وهم الذين يطلبون الزيادة فى العلم كل يوم ويقولون: ﴿ربِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ ونحن لا نطلب زيادة فى علم ولا زيادة فى معرفة.

وبسبب هذا الفراغ الفكرى والدينى وقعنا فى حبائل الفكر السياسى الخاطئ، والاجتهادات السياسية الخاطئة، وفى شباك هذه المقولة الشائعة بأننا نعيش فى مجتمع جاهلى كافر لابد من الخروج عليه بالسيف..

واستدل القائلون على كفرنا وجاهليتنا بالآيات:

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ (٤٤ - المائدة)

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ (٤٥ - المائدة)

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ (٤٧ - المائدة)

وهى آيات نزلت فى حق الذين حرفوا الإنجيل والتوراة، وافتروا على الله وحكموا بما لم ينزل.. لقد وردت بخصوص أهل الكتاب.. والسياق الذى جاءت فيه هو سياق أهل الكتاب وما فعلوه بكتابهم.. ولكن الذين أشعلوا الفتنة يرفضون هذا التفسير الذى يحتمه السياق، لأنهم يريدون سندًا شرعيًّا للقتل، ورخصة للانقلاب، وتصريحًا إلهيًّا بسفك الدم.

ومرتكبو المعاصى من المسلمين ليسوا كفرة بنص القرآن:

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومَنْ يغفر الذنوب إلا الله ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يَعْلَمُون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجناتٌ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وَنِعْمَ أجْرُ العاملين﴾. (١٣٥، ١٣٦ - آل عمران)

وربنا فى الحديث القدسى ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة فينادى:

من يستغفر فأغفر له.. ومن يتوب فأتوب عليه.

وهذا هو ديننا السمح، وهذا هو ربنا العفو الغفار الودود الرؤوف.. وشيخ الإسلام العز بن عبد السلام له فتوى

شهيرة بشأن المسلم الذى نزل بساحة قوم يشيع فيهم الحرام ولا يتيسر الحلال.. ويسأل ماذا يفعل.. فلا يقول له الشيخ اخرج عليهم بالسيف بل يقول: خذ من الحرام بقدر حاجتك لتعيش ولا تزيد.

ولكن الذين يريدون أن يحولوا مصر إلى لبنان، ويحولوا الوطن العربى إلى حمام دم يقولون: بل تخرج عليهم بالمدفع الرشاش وتطلق الرصاص على الجميع.. فالكل كافر وجاهلى ومرتد.

إنها فتنة لن يَأْتِيَ منها خير، ولن ينجو منها أحد،
وسوف يحترق فيها الكل، والمثال اللبنانى أمامنا،
وفى النهاية سوف يحترق فيها مشعلوها،
ولن يفيد منها إلا إسرائيل والقوى الكبرى،
ولهذا يخططون.. ولهذا يرسمون.

ويخطئ من يتصور أن الحل هو تنحية الدين من المعركة وتجنبه بالكلية.. ثم العمل السياسى من خلال القومية العربية وحدها، وهو تصور خاطئ، لأنه سوف يخسر بذلك القوة التعبوية للإسلام فى معركة المصير، ولن تجمع راية القومية أحدًا.. وجمال عبد الناصر لم يستطع أن يفعل بالقومية العربية شيئا فى حرب ١٩٦٧.. ورايـة القومية العربية البعثية أو (العبثية) لم تجمع سوريا على العراق، لكن صيحة الله أكبر

عبرت بنا القنال فى حرب ٧٣ ودكت حصون بارليف، وجمعت العرب صفًا واحدًا فى المقاطعة البترولية، وصنعت لنا انتصارًا.

بل الحل فى نظرى هو تنحية الاجتهادات السياسية الخاطئة، ومحاربة الفكر الفاسد القائل بتكفير المجتمع، وفضح هذا الفكر وكشفه.

والقلة المنحرفة لا يجب أن تثير فينا الخوف من الإسلام.. هذا الخوف المرضى الذى يصل بنا إلى اتهام الإسلام وتنحيته من الساحة.. ثم خسارة أكبر قوة تجميع يمكن أن تجمع العرب فى معركة مصيرهم.

والذى يشاهد صلاة العيد فى الخلاء وكيف تجمع كلمة «الله أكبر» فى ساعة زمان الملايين يفترشون الميادين راكعين ساجدين مهللين.. يعرف سحر هذه الكلمة ويعرف الشحنة التى تحتويها.

والإسلام هو الذى صنع الشىء الذى اسمه الأمة العربية، فلم تكن هناك أمة عربية قبل الإسلام.. لم تكن هناك سوى قبائل متناحرة.

والقومية العربية بدون الإسلام هيكل مجرد مفرغ من طاقته، عار من شحنته، ولا قدرة لها على فعل شىء.

لكن أى الرايات الإسلامية نرفع..؟ هذا هو السؤال..

أقول: إسلام الأخوة.. إسلام الوحدة.

إسلام القيم ومكارم الأخلاق.
إسلام الشجاعة والأمانة والوفاء والثبات.
إسلام العلم والعمل.
إسلام العدالة والحرية.

أما رايات الفتنة التى تريد أن تتخذ من الإسلام أداة انقلاب لضرب النظم القائمة فهى الرايات المتهمة التى لا يجب أن نكتفى بتنحيتها وتجنبها، وإنما لابد من محاربتها وكشفها وفضحها..

أما الأصوات التى تنادى بالتطبيق الفورى للشريعة فنقول لها: إن الله لم يحرم الخمر بشريعة فورية، وإنما أنزل تحريمه للخمر على مراحل، وذلك لشيوع الخمر فى وقتها، ونحن اليوم نعانى من شيوع بلايا مماثلة تحتاج إلى تدرج مماثل.

ونقول: إن الشريعة مطبقة بالفعل فى ثلاثة أرباع القوانين الموجودة بمصر، وإن الباقى يحتاج إلى دراسة واستنباط واجتهاد وتفهم لمتغيرات العصر، ولمقتضيات الظروف.. والكلام عن مقتضيات الظروف ليس بدعة، فالنبى عليه الصلاة والسلام لم يقطع يدًا فى ظروف الحرب، كما أن عمر بن الخطاب لم يقطع يدًا فى ظروف المجاعة.

ونقول لهم: إن الشريعة ليست موضوعًا للمزايدة الحزبية.. ولقد اتخذها جعفر النميرى موضوعًا للمزايدة فى السودان وفشل.. ولا نريد أن نكرر خطأ النميرى.

ونذكر جميع الأطراف فنقول:

إن مصر بلد التوحيد،

وهى بلد الأزهر، وبلد الأربعين ألف مسجد، وهى مركز الدعوة الإسلامية فى العالم العربى.

ونحن فى مصر نحاول بالشورى وبالديمقراطية أن نتقدم، وأن نصلح من أنفسنا، فما هى البدائل التى تريدونها لنا للتقدم السريع المطلوب؟

* * *

البديل الإيرانى؟!
أو البديل اللبنانى؟!
أو البديل العدَنى؟!
أو البديل الليبى؟!
أو البديل السورى؟!

فتلك هى الأراضى التى حظيت بالانقلابات السعيدة.. وفازت بالثورات التقدمية والدينية، فكيف حالها؟! وماذا فعلت؟!

إن ليبيا التى كانت أغنى دولة عربية - بحساب تعداد

سكانها - أصبحت الآن أفقر دولة.. وأصبح المواطن الليبى يقف فى طابور ليجد حصته من الأرز والسكر.

وإيران خسرت بتروها وشبابها وأرضها فى حرب عقيم.
وسوريا مفلسة ومدينة ومحتلة من إسرائيل ومحكومة بالسوفيت.
ولبنان تنزف.
وعدن تتسول المعونات.

لقد اختارت مصر الطريق السليم بالفعل، وصححت مسارها الذى انحرف فى الستينيات وتبنت الخط الحضارى المعتدل.
وهى الأمل فى زعامة إسلامية عربية رشيدة.
هذا إذا وَعَى الكل وثابوا إلى ركن شديد.

* * *

وعلى صعيد العالم من حولنا حدثت هستيريا من نوع ثالث، هى هستيريا الدولار الذى أوشك أن يصل إلى نصف قيمته، وتدهورت معه أسعار الأسهم، وارتفع الذهب، واختلت الموازين الاقتصادية.

ولكنها مثل هستيريا اليسار وهستيريا اليمين، كانت هستيريا مفتعلة ومصنوعة، فكما يعلم اليسار حقيقة وضع المجاهدين فى أفغانستان وأنهم الفئة المطحونة والمجنى عليها برغم مهاتراته، وكما يعلم إرهابيو اليمين أن القتل ضد شريعة الله برغم شعاراتهم المعلنة.. كذلك تفتعل أمريكا هذا الهبوط للدولار وتصنعه صنعًا

لتضرب به التجارة اليابانية والتجارة الأوربية، وتنافس بالسعر الأرخص فى كل المنتجات.. كما تسرق نصف قيمة المليارات التى أودعها العرب ودول البترول فى البنوك الأمريكية بطريقة ذكية ومشروعة، كما تخفض قيمة العائدات العربية النفطية إلى النصف، كما تخفض قيمة ديونها وتعالج العجز فى ميزانها.. وهكذا تضرب جميع العصافير بحجر واحد.. وتقف باكية متباكية وكأنها الضحية البريئة لتقلبات السوق وحمى البورصة.. كما تفعل مع طفلتها المدللة إسرائيل.. تسلحها بمعونات الهلاك والدمار وتمدها بكل شىء، من الرغيف إلى الصاروخ، فإذا اعتدت إسرائيل على جيرانها العرب بنفس الأسلحة ونفس المعدات لاذت أمريكا بالصمت، أو بادرت إلى الفيتو لتمنع قرار مجلس الأمن من الاحتجاج.

ومن وراء أمريكا يعمل سماسرة الهستيريا فى العالم العربى.. لنفس المخطط تحت شعارات مزيفة.. وكلهم - القذافى، والخومينى، والأسد - يعلمون تمامًا ما يقومون به من تخريب متعمد مرسوم.. ويعلمون تمامًا أن تصريحاتهم الرسمية هى نوع من «الاستهبال العام».

ولكن يبدو أنهم جميعًا مثل الرفاق الشيوعيين يظنون أن أحدًا منهم لن يموت، وإذا مات فهو ذاهب سُدًى إلى حيث لا بعث ولا حساب ولا مساءلة.. وأن الدنيا للشطار.. وأن من يخطف

الخطفة ويهرب من عيون الشرطة والمخابرات والعقاب الدنيوى فسوف يفلت إلى الأبد.. ولا أدرى من أين أتوا بهذا الكلام، والعالم حولهم شاهد على الحكمة والنظام.. وهم يرون فيه الإلكترون لا يستطيع أن يفلت من قبضة الذرة إلا بكم من الطاقة يساوى حركته.. وأنه لا توجد ثغرة واحدة فى صنعة الخالق.. فمن أين لهم أنهم سوف يفلتون؟!

فليطمئنوا.. فلم يتبق لأحد منهم إلا ما تبقى من عمره.. ثم غدًا الموعد الله.